الفصل الرابع

الفترة البصرية الثانية

بين ماضى البصرة وحاضرها – حلقة الأصمعى – طلابه فيها – تقدم العمر به – بعض صفاته – تحرجه من تفسير القرآن والحديث – ملامحه الخلقية والخلقية .

بين ماضى البصرة وحاضرها :

رجع الأصمعى إلى البصرة بعد مقتل جعفر بن يحيى البرمكى سنة سبع وثمانين ومائة ، وحرىٌّ بنا ونحن نعود إلى البصرة مرةً أخرى أن نعقد مقارنة وجيزة بين البصرة فى ماضيها ، وبينها يوم عاد إليها الأصمعى .

كانت البصرة من أوائل مدن العراق التى تعددت فيها النزعات الفكرية ، كانت مرفأ هذه البلاد ، تأتى إليها تواجر السفن من شتى بلاد المشرق ، وينزل بها من التجار والمسافرين ما لا حصر لملهم وأجناسهم ، ولقد تهيأت الأسباب للثقافة اليونانية أن تأخذ مكانها فى هذا الإقليم ، ثم أتيح لها أن تسود الثقافات الكلدانية والهندية الوافدة من الشرق .

ولا تكاد البصرة الإسلامية تختلف فى طريقة تفكيرها وماضيها : فعامل التجارة الذى حقق الواقعية ظل على ما هو عليه ، وبقيت البصرة تصطنع التجارة كما كانت بالأمس ، وطريقة التفكير العقلى الذى صدر عن مفكرى المسلمين يعد استمرارًا لهذا اللون من الثقافة اليونانية المتميزة بالطابع العقلى المنتظم .

كان النظّام يقرأ كتب أرسطو ويتفهمها ، ويرد على بعض ما جاء فيها[1] ، واتصل أبو الهذيل العلاف بالفلسفة اليونانية ، وأعانته دراسته لها على تنظيم مبادئ المعتزلة (وامتلأت

(١) المنية والأمل ٢٩ .

حياته بالمناظرة والجدل مع الزنادقة والشكاك والمجوس والثنوية ، ورووا أنه أسلم على يديه أكثر من ثلاثة آلاف رجل)[٢] .

وكان للموالى دور كبير فى إعلاء شأن البصرة : بعضهم أقبل على هذا الدين بنفس مطمئنة ، وشارك فى العلوم الإسلامية كالحسن البصرى ، وابن سيرين ، وهما من سبى هذا الإقليم ، وبعضهم أقبل على العلوم الإسلامية تحقيقاً للمجد الأدبى ، أو كرد فعل لتيقظ النزعات القومية .

وفى البصرة – وبسبب هذه الأجناس المختلفة التى كانت تعيش فيها – دعت الدواعى إلى تعلم العربية وتقنين النحو : ويروى فى هذا أن أبا الأسود الدؤلى جاء إلى زياد بالبصرة فقال : إنى أرى العرب قد خالطت الأعاجم ، وتغيرت ألسنتهم ، أفتأذن لى أن أضع للعرب كلاماً يعرفون ، أو يقيمون به كلامهم ؟ قال : لا ، فجاء رجل إلى زياد فقال : أصلح الله الأمير (توفى أبانا وترك بنونا !) فقال زياد : توفى أبانا وترك بنونا .... ! ادع لى أبا الأسود ، فقال : ضع للناس الذى نهيتك أن تضع لهم[٣] .

ويقال : إن السبب فى ذلك – أنه مرّ بأبى الأسود – سعد – وكان رجلاً فارسياً من أهل بوزنجان كان قد قدم البصرة مع جماعة من أهله ، فدنوا من قدامة بن مظعون الجمحى ، فادعوا أنهم أسلموا على يديه ، وأنهم بذلك من مواليه ، فرسعد هذا بأبى الأسود وهو يقود فرسه قال : مالك يا سعد لا تركب ؟ قال : إن فرسى ضالعًا (يريد : إن فرسى ظالع) فضحك مع بعض من حضره ؛ قال أبو الأسود : هؤلاء الموالى قد رغبوا فى الإسلام ، ودخلوا فيه ، فصاروا لنا إخوة فلو علّمناهم الكلام .... ![٤] .

ظلت البصرة تحتل المكان الأول فى العراق حتى بعد ظهور الحركة العلمية بالكوفة ، ولكنها لم تستطع أن تحتفظ طويلاً بهذه المكانة بعد قيام الدولة العباسية واتخاذها بغداد عاصمة لها . صحيح أن البصريين حاولوا التشبث بمكانهم ومكانتهم العلمية فى البصرة ، ووجدوا فيها غنى عن السلطان ، بل ناوءوا الدعوة العباسية ، وانضم أبو محمد اليزيدى إلى إبراهيم بن عبد الله الذى اتخذ البصرة مكاناً يدعو فيه لأخيه محمد بن عبد الله بن الحسن ، وشارك بشار بن برد فى

---

(٢) ضحى الإسلام ٣ : ٩٩ .

(٣) أخبار النحويين البصريين ١٣ .

(٤) أخبار النحويين البصريين ١٣ ، ١٤ .

هذا التأييد بقصيدة هاجم فيها أبا جعفر المنصور قال فيها :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم

ووجه سليمان بن على من الأهواز إلى الخليل بن أحمد يلتمس منه الشخوص إليه وتأديب ولده ويرغّبه ، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزاً يابساً وقال : ما عندى غيره ، وما دمت أجده فلا حاجة لى فى سليمان ! فقال الرسول : فماذا أُبلِّغُهُ عنك ؟ فأنشأ يقول :

أبلغ سليمانَ أنى عنك فى سعة وفى غنى غير أنى لست ذا مال

سخَّى بنفسىَ أنى لا أرى أحدًا يموت هزلاً، ولا يبقى على حال(٥)

وكان المتكلمون وأصحاب الفرق يجدون فى البصرة مجالاً واسعاً لنشر ثقافتهم وآرائهم وإن اختلفت مع ذلك أهواؤهم وميولهم ، وربما استراحوا إلى بعد البصرة عن مقر الخلافة ، فتحررت عقولهم من كثير من القيود السياسية ، ولم يشذ عن ذلك أصحاب اللغة وأهل العربية ، ولكن قيام الدولة العباسية واتخاذها بغداد عاصمة لها قد فكك هذا التماسك فى البصرة ، وبدأ القصر يستهوى بعض الناس يلتمسون معاشهم فى عاصمة الدولة : فذهب أبو نواس ، والموصلى ، والعباس بن الأحنف ؛ كما تقرب اليزيدى إلى العباسيين متوسلاً بيزيد بن منصور خال المهدى بعد أن فشلت ثورة إبراهيم بن عبد الله ، فرأيناه فى مجلس المهدى قبل أن يستخلف ، ثم ما لبث أن صار مؤدباً للمأمون ، ومجالساً للرشيد .

وفى عهد الرشيد – كان من مظاهر الترف – هذه المجالس التى تعدَّدَت أسماؤها ، ومن بينها مجالس العلم والسمر ، وذهاب الأصمعى وأبى عبيدة بدعوة من القصر واختيارُ أولها – هو فى الحقيقة تعبير عن الأزدهار الذى ساد بغداد ، والذى كان له أكبر الأثر فى التقليل من شأن البصرة .

هذه لمحة موجزة عن البصرة ، فلما عاد إليها الأصمعى راجعاً من بغداد كانت هذه الصورة قد تغيرت معالمها ، فقد توفى أصحاب الصف الأول من أمثال أبى عمرو بن العلاء ، والخليل ابن أحمد ، ويونس بن حبيب ، وخلت من اليزيدى ، أما أصحاب الصف (الثانى) فقد عانى بعضهم تعب الكبر والشيخوخة ، ولم يطل الوقت حتى عاد المأمون إلى العراق ، وجمع إلى بطانته رجال العلم ، وألان جانبه للمعتزلة ، فشدوا رحالهم إلى بغداد ، وبهتت صورة البصرة بعد أن كانت العاصمة العلمية للعراق .

---

(٥) أخبار النحويين البصريين ٣١ .

حلقة الأصمعى :

عاد الأصمعى إلى البصرة ، وقد اشتهر أمره ، وذاع صيته ، وغنم علماً غزيراً اكتسبه بعد رحلته إلى بغداد ، وقد أتاحت له حياته الناعمة فيها استعادة ما حَصَّلَه ، وزاد فيه . فقال فيه ثعلب (قدم الأصمعى بغداد وأقام فيها مدة ، وخرج منها يوم خرج وهو أعلم منه حيث قدم بأضعاف مضاعفة) .

عقد حلقته بالبصرة مرة أخرى ، وجلس إليه أصحابه وطلابه ، وجاء إليه وافدون من أقاصى البلاد . بعضهم يطلب العلم حقًّا ، وبعضهم جاء ليرى من الأصمعى وقد دفعه الاستطلاع إلى استكناه أمره ، فأعد له من مشكلات الأمور ومعضلاتها ما يمتحنه بها . .

يقول أبو عثمان الاشاناندانى : كنا يومًا فى حلقة الأصمعى إذ أقبل أعرابى يرفل فى الخزوز فقال : أين عميدكم ؟ فأشرنا إلى الأصمعى ؛ فقال : ما معنى قول الشاعر :

لا مال إلا العطاف توزره أم الثلاثين وابنة الجبل

لا يرتقى النَّزّ فى ذلاذله ولا يعدى نعليه عن بلل

قال : فضحك الأصمعى ، وأتم القصيدة ، ثم بدأ فى شرحها ، فانصرف الأعرابى وهو يقول : تالله ما رأيت كاليوم عضلة .

ولا يكاد ينصرف هذا الرجل السمح المعترف بفضل الأصمعى ، المعجب بعلمه حتى يفد عليه أعرابى متحد متعجرف ، وقف على حلقته قائلاً : أيكم الأصمعى ؟ قال : أنا ذاك ؛ قال : أنت الذى يزعم هؤلاء النفر أنك أثقبهم معرفة بالشعر والعربية وحكايات الأعراب ؟ قال الأصمعى : فيهم من هو أعلم منى ، ومن هو دونى ؛ قال : أفلا تنشدوننى من شعر أهل الحضر ؛ حتى أقيسه على شعر أصحابنا ؟ فأنشده الأصمعى شعراً لرجل امتدح به مسلمة بن عبد الملك :

أمسلم ، أنت البحر إن جاء وارد وليث إذا ما الحرب طار عقابها

وأنت كسيف الهندوانى إن عَدَتْ حوادثُ من حرب يعب عبابها

وما خلقت أكرومة فى امرئ له ولا غاية إلاّ إليك مآبها

كأنك ديَّانٌ عليها مُوَكّل بها وعلى كَفَّيْك يجرى حسابها

إليك رحلنا العيس إذ لم نجد لها أخا ثقة يُرجى لديه ثوابها

فتبسم الأعرابى وهزّ رأسه ، فظنوا أن ذلك لاستحسانه الشعر ثم قال : يا أصمعى ، هذا شعر مهلهل خلق النسج خطؤه أكثر من صوابه يغطى عيوبه حسن الروى ورواية المنشد : يشبهون الملك إذا امتدح بالأسد ، والأسد أبخر شتيم المنظرْ وربما طرده شرذمة من إمائنا وتلاعب به صبياننا ويشبهونه بالبحر ، والبحر صعب على من ركبه ، مُرّ على من شربه وبالسيف وربما خان فى الحقيقة ونبا عن الضربة ألا أنشدتنى كما قال.صبى من حينا ؟ قال الأصمعى . وماذا قال صاحبكم ؟ فأنشد :

إذا سألت الورى عن كل مكرمة ... لم يعز إكرامها إلا إلى الهول
فتى جواد أذاب المال نائلُه ... فالنيل يشكر منه كثرة النيل
الموت يكره أن يلقى منيته ... فى كرّه عند لف الخيل بالخيل
لو زاحم الشمس أبقى الشمس كاسفة ... أو زاحم الصم ألجاها إلى الميل
أمضى من النجم إن نابته نائبة ... وعند أعدائه أجرى من السيل
لا يستريح إلى الدنيا وزينتها ... ولا تراه إليها ساحب الذبل
يقصر المجد عنه فى مكارمه ... كما يقصر عن أفعاله قولى

قال أبو النصر ، وكان فى حلقة الأصمعى : فأبهتنا والله ما سمعنا من قوله ، وبعد أن تأنى الأعرابى عاد فقال : يا أصمعى : ألا تنشدنا شعرًا ترتاح إليه النفس ، ويسكن إليه القلب فأنشد لعدى بن الرقاع العاملى :

وناعمةٍ تجلو بعود أراكة ... مؤشرة يسبى المعانق طيبُها
كأن بها خمراً بماء غمامة ... إذا ارتشفت بعد الرقاد غروبها
أراك إلى نجدٍ تحن وإنّما ... مُنى كل نفس حيث كان حبيبها

فتبسم الأعرابى ، وقال : يا أصمعى ، ما هذا بدون الأول ولا فوقه ، ألا أنشدتنى كما قلت ؟ قال الأصمعى ، وماذا قلت جعلت فداك فأنشد :

تعلقتُها بكراً وعُلِّقْتُ حبها ... فقلبىَ عن كل الورى فارغ بكْر
إذا احتجبت لم يكفك البدرُ ضوءها ... وتكفيك ضوء البدر إن حُجب البدرُ
وما الصبر عنها إن صبرت وجدتَه ... جميلاً – وهل فى مثلها يحسن الصبر
وحسبك من خمر يفوتك ريقها ... ووالله ما من ريقها حسبك الخمر
ولو لم يكن للبدر ضدًّا جمالُها ... وتفْضله فى حسنها – لصفا البدر

قال أبو النصر : قال الأصمعى : اكتبوا ما سمعتم ولو بأطراف المدى فى رقاق الأكباد قال : وأقام عندنا شهراً فجمع له الأصمعى خمسمائة دينار ، وكان يتعاهدنا فى الحين بعد الحين حتى مات الأصمعى ، وتفرق أصحابنا[٦] .

وفى هذه الفترة ظهر رجال الطبقة التالية : أبو محمد عبد الله بن محمد التوزى ، وأبو نصر أحمد بن حاتم الباهلى ، وأبو حاتم سهل بن محمد السجستانى ، وأبو الفضل العباس بن الفرج الرياشى وهم الذين أخذوا عن الأصمعى وأبى زيد وأبى عبيدة ، فبرز كل فى ناحية . يقول العباس بن الفرج : تحفظت كتب أبى زيد ودرستها إلا أنى لم أجالسه مجالستى للأصمعى ، وأما كتب الأصمعى فإنى حفظتها لكثرة ما كانت تتردد على سمعى لطول مجالستى له . قال : وكنت أقرأ على أبى زيد ، ولعل حفظى كان قريبًا من حفظه[٧] ، وهكذا نشأوا أيضاً على تفاوت كان المازنى فى الإعراب ، وأبو حاتم فى الشعر والرواية ، وكان الرياشى فى الجميع[٨] .

ظل المسجد عامرًا بهؤلاء العلماء حتى تقدمت بهم السنون ، وعبّر عن ذلك التوزى بقوله : (خرجت إلى بغداد فحضرت حلقة الفراء ، فلما أنس بى قال :ما فعل أبو زيد الأنصارى ؟ قلت ملازم لبيته وحلقته فى المسجد وقد أسَنّ ؛ قال : ذلك أعلم الناس باللغة وأحفظهم لها ؛ ثم قال : وما فعل أبو عبيدة ؟ قلت ملازم لبيته ومسجده على سوء خلقه ! قال : أما أنه أكمل القوم وأعلمهم بأيام العرب ومذاهبها ثم قال : وما فعل الأصمعى ؟ قلت : ملازم لبيته ومسجده ؛ قال : ذاك أعلمهم بالشعر وأتقنهم للغة وأحضرهم حفظًا ما فعل الأخفش .....)[٩] .

وإذا كان الأصمعى خَفَّفَ عن نفسه مشاق الذّهاب إلى المسجد وعبء الجلوس إلى طلابه – فإن الوافدين منهم لم يكونوا يركنون إلى الانتظار ، وإنما كانوا يختلفون إلى منزله كما ذكر التّوزى عن وفد خراسان الذى جاء إلى بابه يطريه ويقرِّظه ويقول له :(خراسان يرجف بعلم البصرة وعلمك خاصة ....) .

---

(٦) زهر الآداب ٢ : ١٠١ .

(٧) طبقات الزبيدى ١٠٤ .

(٨) طبقات الزبيدى ١٠٥ .

(٩) المزهر ٢ : ١٩٣ ط السعادة و٢ : ٤٠٤ ، ط الحلبى .

من صفات الأصمعى :

بقى علينا ونحن نحاول تعميق ملامح الأصمعى وإبراز صورته أن نلقى الضوء على الجوانب الهامة التى امتاز بها هذا الرجل وخالف بها أقرانه : كانت بعض هذه الملامح طبيعة فيه لا يقصد بها جنوحًا إلى الانفراد ، ولا رغبةً فى التزيد ، بل كان بعضها كالبخل والانزواء مما يأنف الإنسان العادى أن يُذْكَرَ بها ، ولكنها كانت بالنسبة لنا مفاتيح ندخل بها إلى مغالق هذا الرجل ، ونكتشف بها بعض جوانبه التى أجملنا الحديث عنها ، وأولى هذه الملامح ، وأكثرها تفسيرًا لسلوكه هى :

تحرجه من تفسير القرآن والحديث :

لمحنا أكثر من مرة ميل الأصمعى إلى التوقف عن الكلام فيما له صلة بالناحية الرّوحية . كان يتحرج من تفسير القرآن والحديث ، وإذا سئل فى شىء من ذلك قال : العرب تقول معنى هذا كذا ، ولا أعلم المراد منه فى الكتاب والسنة أى شىء هو وكان يقف تمامًا عندما تعترضه لغةٌ لها نظير أو اشتقاق فى القرآن : امتنع عن إجابة أبى حاتم عن معنى الرِّبّة لأن فى القرآن (رِبِّيون) ، وفى سرى وأسرى لأن فى القرآن (فأَسْرِ بأهلك) وفى عصفت وأعصفت لقوله تعالى (ريح عاصف) وفى سحته وأسحته لأنه قرئ (ليسحتكم) وفى سلك الطريق وأسلكه لأن فى القرآن (ما سلككم فى سقر)[١٠] .

وكان على حذر عند نظره فى تفسير الحديث ، إذ كان يذهب مذهب المتأثمين المتحرجين : يقول نصر بن على : سمعت الأصمعى يقول لعفان وجعل يعرض عليه شيئاً من الحديث : اتق الله يا عَفَّان ولا تغير حديث رسول الله ﷺ[١١] وهو يتذمم أن أفلت لسانه ، ففسر كلمة واحدة كما يقول نصر بن على وقد سأله سائل عن معنى قول الرسول ﷺ (جاءكم أهل اليمن وهم أبخع نفساً) ما معنى أبخع ؟ قال : يعنى أقتل . ثم أقبل على نفسه كاللائم لها ، فقلت له ، لا عليك فقد حدثنا سفيان بن عيينة عن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى (فلعلك باخع نفسك) : أى قاتل نفسك ، فكأنه سُرِّىَ عنه .

---

(١٠) المزهر ٢ : ٣٢٦ .

(١١) تاريخ بغداد ١٠ : ٤١٠ .

ولما كتب أبو عبيدة كتابه (مجاز القرآن) ثار عليه نفر كبير فى الكوفة والبصرة :

أما فى الكوفة فقد تزعم الفراء هذه الثورة ، وقال كما يحكى ياقوت : لو حُمل إلىّ أبو عبيدة لضربته عشرين على كتاب المجاز .

وأما فى البصرة فكان صاحب هذه الحملة عليه هو « أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى » وكان أساس هذه الحملة أنه يُفَسِّر القرآن برأيه ، ولم تكن العداوة بين الرجلين سبباً لهذه الحملة ؛ وإنما كانت مظهرًا من مظاهر الاختلاف بين النزعة العقلية والنزعة النقلية ، ولقد كان أبو عمر الجرمى يأخذ على أبى عبيدة ؛ كما يأخذ على الأصمعى ، فتصادف أن حَمَلَ أبو عمر كتاب مجاز القرآن ، وذهب إلى الأصمعى ، فقال له : هاته ؛ فتركه عنده ، ونظر فيه حتى انتهى إلى آخره ، فلما رجع أبو عمر قال له : يقول أبو عبيدة فى أول كتابه (الٓمٓ . ذلك الكتاب لا ريب فيه) : أى لا شك فيه ، فما يدريه أن الريب هو الشك ؟ قال أبو عمر : أنت فَسَّرْتَ لنا فى شعر الهُذَلِيِّين :

فقالوا تركنا القوم قد حصروا به فلا ريب أن قد كان ثم لحيم

قال أمسك ولم يقل شيئاً ، ورد الكتاب[١٢] .

ولا نستطيع أن نمر سراعاً أمام هذه الظاهرة ونخرجه من الخوض فى مسائل التفسير للقرآن والحديث دون أن نُقَلِّبَهَا على الوجوه المختلفة ، وتساءلنا – هل كان ذلك عن تقصير فى تحصيل علوم القرآن والحديث ؟ إن النصوص تخالف ذلك تماماً ، وتشير إلى أنه قرأ القرآن على أبى عمرو بن العلاء وهو من رجال القراءات ؛ كما تؤكد أنه لازم أستاذه هذا سنين طويلة شَمَّر فيها ونبغ ، ثم صاحبَ بعدَه أبا عمرو عيسى بن عمر الثقفى ، ولو أن الرجل كان صاحب نحو فإن أمرَه اشتهر فى ناحية القراءات ، وروى عنه القراءة لفيفٌ من الأعلام منهم الأصمعى ، ولما توفى عيسى بن عمر سنة تسع وأربعين ومائة لازم الأصمعى أحد أفذاذ القراء وهو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم ، وأصحابُ القراءات يدركون معانى القرآن ووجوه تفسيره .

وفى الحديث ؛ نراه يلازم أئمته من أمثال شعبة بن الحجاج ، وسفيان بن عيينة ، بل أخذ عن الأصمعى نفسه : مالكٌ ، وابن معين ، ونصر بن على ، وعمر بن شبه ، ذكر ذلك الحافظ صفى الدين أحمد بن عبد الله الخزرجى صاحب تذهيب الكمال ، وأمثال هؤلاء الذين لهم بضاعتهم النافقة ، وعلمهم الواسع ، والذين يعتبرون فيه أفذاذاً – هم شيوخ الأصمعى ،

(١٢) خلاصة تذهيب الكمال ٢٠٧ .

وكفاه بذلك شهادة على تمكنه من المعرفة بالقرآن والحديث ، وجاز لنا أن نقول : إن سكوته عن الخوض فى تفسير القرآن والحديث لم يكن إلا تَجَنُّباً لما يمزق المجتمع الثقافى فى عصره من آراء كلامية فى هذا الموضوع ، وقد رأينا أن أكثر أصحاب هذين العِلْمَيْن يفضلون الأراضى المقدسة فى الحجاز ، ويبتعدون عن العراق الذى اشتهر بالمعركة الكلامية ، والأصمعى ينصب نفسه حُجَّةً فى اللغة ومرجعاً يقصده من شاء ، لا يصده عنه شهرة فى الانحياز إلى مبدإ معين ، ولا يعرضه ذلك الانحياز إلى سخط الساخطين من العامة أو من رجال الحكومة .

والفرق بين الأصمعى هنا ، ورجل كالجاحظ باعتباره رجلا من المتكلمين واضح فى أن الأصمعى كان حريصًا على طول الخط ، أما الجاحظ فلم يلجأ إلى الانزواء والاختفاء من المجتمع اختفاء يكاد يكون نهائيًّا إلا بعد البطش بالمعتزلة والتنكيل بأحمد بن أبى دؤاد الذى قتل حرقًا ، فلما سئل الجاحظ عن تخليه وانزوائه أجاب على طريقته الساخرة : خشيت أن أكون ثانى اثنين إذ هما فى التنور .

ولا يفوتنا أن نشيرَ إلى الفرق فى طبيعة الثقافة بين الأصمعى والجاحظ .

فالجاحظ لم يكن راويةً ، ولم يكن محدثاً ، ولا فقيهاً ولا قارئاً للقرآن ، ولا صاحبَ مذهبٍ فى التفسير ، وإنما كان أديباً يجمع مزايا الأديب الواسع الثقافة فى عصره ، وفى أكمل صورة يفهمها ذلك العصر للثقافة ، كان آخذًا بطرف من فكاهات الأعراب ، وبلاغات الخطباء ، ومنتقيات الشعر ، وكان دارساً لعلوم الهند ، وفلسفة اليونان ، وأساطير الفرس ، فلم يكن إذن يعلم الناس نصوصًا منتقاة محققة المتون والأسانيد ، ولم يكن يحمل إليهم تراثاً قديماً لا يستطيع أن يتصرف فيه بزيادة ولانقصان ، وإنما كان الناس يطلبون منه أن يفكر ، وأن يتكلم ويكتب ، فيكون فهمه وابتكاره نتيجة هضم هذه الثقافات جميعاً . ورجل هذا شأنه كان لابد أن يكون ذا رأى فيما يشغل بال الناس من مشاكل ، وهكذا اختار الاعتزال ، المذهب الذى يرتكز على العقل أكثر من ارتكازه على النقل ، ويستفيد بمنطق أرسطو وجدل الأديان التى كانت سائدة فى فارس والهند وغيرهما ، ومع كل هذا انزوى واختفى من المجتمع كراهة التأويل وخوف التنور .

أما الأصمعى فكان كما قلنا راويةً يؤدى للناس أداءً أميناً تراث الأقدمين فى نقطة معيَّنة محدودة هى لغة العرب ، وقد رأى ألاَّ يزج بنفسه فى مضمار التحرّج ، ومن حوله الأحزاب والطوائف كلٌّ يفسر وينظر فى الحديث على ضوء مذهبه هو ، وأعتقد أنه كان إلى جانب خوف

الأصمعى من مشاكل الدنيا نفسٌ متحرجة تخشى الله من مجرد الشك فى تفسير الحديث أو الآية من القرآن الكريم .

أما عن ملامحه الخَلْقية والخُلقية – فلقد كان الأصمعى صورةً واضحة من أستاذه أبى عمرو بن العلاء من حيث الثقة فى الرواية والصدق فى الخبر . كان أبو عمرو يتحرّج من الكذب ، ولا يقول إلا عن يقين وتثبت حتى أحرق فى أخريات أيامه ما وضع من كتب خشية أن يكون فيها غيرُ الصحيح ، فيحمل وزر ما كتب وكذلك كان الأصمعى : فإنه وإن لم يحرق كتبه – كان يأمر ابن أخيه عبد الرحمن بكتابة ما ينتهى إلى الثقة فيه ، ويقول له عن الخبر الذى يتأرجح بين الصحة والشك : (جحفله أو جعفل به)[١٣] وكان أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يثنيان عليه .

والكلام عن تقوى الرجل وصلاحه مستمد من شهادة الحال وانصرافه بكُلّيته إلى العلم والنظر فيه بمالا يخرج عن الدائرة التى رسمها لنفسه مرضاة لدينه ، ولولا الفترة البغدادية التى قربته من السلطان وجعلته عرضة للاحتكاك بغيره فى دار الخلافة من علماء وشعراء وندامى وأصحاب مجالس الطرب ، وفيهم من وجد فى الأصمعى غريمًا ومنافسًا فى صيد الدراهم ومزاحمًا مرموقًا فى مجالس الرشيد – لولا هذه الفترة ما وجدنا خبرًا يتهم الأصمعى فى دينه ومذهبه .

وإذ اتهمه الجاحظ بالمانوية فإنه لم يكن وحده الذى تصدى للأصمعى وغمزه فى دينه ، فلقد تعرض لحملة قاسية من الثالوث الشعوبى أبى عبيدة معمر بن المثنى ، وأبى نواس ، وإسحق بن إبراهيم الموصلى آثرنا أن نبسط القول فى هذه الحملة فى حديثنا عن الخصومات بينه وبين العلماء فهى أشبه بأخبار الخصومات .

أما عن ملامحه الخُلُقية ، وحرصه على المال – وقد تعرض بسببها أيضًا للكثير من أقوال الخصوم فلم يكن – فيما أرى – بهذه البشاعة والمبالغة التى وُصِفَ بها : كان الأصمعى خفيف الظل ، سريع البديهة ، حلو المجالسة يرسل النادرة الفكهة كأنه أعد مناسبتها حتى تمثل بحديثه أبو منصور الثعالبى وهو يمتدح الأمير أبا الفضل فقال :

لك فى الفضائل معجزات جمة أبدًا لغيرك فى الورى لم تُسمِع
بحران – بحرٌ فى البلاغة شابه شعر الوليد وحسن لفظ الأصمعى

---

(١٣) ارمه .

غير أنه لم يوهب نعمة الجمال ، ولكن فى غير قبح أو دمامة ، وإلا ما خف على قلب الرشيد ووزرائه وهم وأمثالهم يتطيرون من كل قبيح وإنك لتدرك ظرفه ، وخفة روحه فى هذا الخبر الذى أعد للتدليل على قبحه ، ويحكيه الأصمعى بنفسه فيقول :

(دخلت على جعفر بن يحيى بن خالد يومًا ، فقال لى : يا أصمعى ، هل لك من زوجة ؟ قلت : لا ، قال : فجارية ؟ قلت : جارية للمهنة قال فهل لك أن أهب لك جارية نظيفة قلت : إننى لمحتاج إلى ذلك ؛ فأمر بإخراج جارية إلى مجلسه ، فخرجت جارية فى غاية الحسن والجمال والهيئة والظرف والمقال ، فقال لها : وهبتك لهذا ، وقال : يا أصمعى خذها ، فشكرته ، وبكت الجارية ، وقالت : يا سيدى ، تدفعنى إلى هذا الشيخ مع ما أرى من سماجته وقبح منظره وجزعت جزعاً شديداً ، فقال : يا أصمعى ، هل لك أن أعوضك عنها بألف دينار ؟ ، قلت : ما أكره ذلك ؛ فأمر لى بألف دينار ودخلت الجارية ، فقال يا أصمعى : إنى أنكرت من هذه الجارية أمرًا ، فأردت عقوبتها بك ، ثم رحمتها منك قلت : أيها الأمير ، مهلاً ، فهلا أعلمتنى قبل ذلك فإنى لم آتك حتى سرحت لحيتى ، وأصلحت عمتى ؛ ولو عرفت الخبر لصرت على هيئة خلقتى ، فوالله لو رأتنى كذلك ما عاودت شيئاً تنكره منها أبدًا ما بقيت)[١٤] .

ومن القصة ندرك ملامحه الخَلْقية وظَرفه معًا ، وكأنها أعدت لهذا الغرض ، فحققت سببها ، واحتفظت لأشخاصها بدلالة مميزاتهم .

ويقولون عن الأصمعى : إنه كان بخيلاً ممسكاً ، والأخبار فى هذا كثيرة ، فضلاً عن شهادة الحال ، والوصف الذى وصفه به جعفر بن يحيى وقد عزم على منحه مكافأة ثم أحجم عن ذلك – دليل آخر على بخل الأصمعى .

وفى خبر آخر نرى الأصمعى نفسه يتهدد ضيوفه ، وقد أعدّ لهم كلباً ضارياً ، ولوّح لهم بهراوة غليظة من خشب صلب ، قد شُدّت بالجلد من أحد طرفيها فإذا كان فى هذا كفاية لصرف الضيفان فقد حقق بذلك رغبته ، وإلا ففى الحيلة منجاة منهم باختلاق المعاذير والشكوى من الزمان وينسب إليه فى هذا قوله :

أعددتُ للضيفان كلباً ضارباً وهراوة مجلوزة من أرزن
ومعاذرًا كذبا – ووجهًا باسرًا وتشاكيًا عض الزمان الألزن

(١٤) المستطرف ٨٣ .

وشذاة مرهوب الأذى قاذورة خشن جوانبه دلوظ ضيزن[١٥]
وبكف محبوك اليدين عن العلا والباع مسود الذراع مقحزن
وتجنيا لهم الذنوب وألتقى بغليظ جلد الوجنتين عشوزن[١٦]

وكان الجاحظ ممن أشاع البخل عليه وغمزه به : ذكره مع البخلاء وخصّ خبره بالتلوين والتهكم قال : (شهدتُ الأصمعى يوماً وقد أقبل على جلسائه يسألهم عن عيشهم وعما يأكلون ويشربون ، فأقبل على الذى عن يمينه فقال : أبا فلان ، ما إدامك قال : اللحم ، قال : أكلّ يوم لحم قال : نعم ، قال : وفيه الصفراء والبيضاء والحمراء والكدراء والحامضة والحلوة والمزة قال : نعم ، قال : بئس العيش هذا ليس هذا عيش آل الخطاب : كان عمر بن الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه يضرب على هذا وكان يقول : مُدْمِنُ اللحم كمُدْمِنِ الخمر ثم سأل الذى يليه قال : أبا فلان ، ما إدامك ؟ قال : الإدام الكثيرة والألوان الطيبة قال : أفى إدامك سمن قال : نعم ، قال : فتجمع السمن والسمين على مائدة قال : نعم ، قال : ليس هذا عيش آل الخطاب : كان ابن الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه يضرب على هذا ، وكان إذا وجد القدور المختلفة الطعام كدرها فى قدر واحدة ، وقال : إن العرب لو أكلت هذا لقتلت بعضهم بعضا .

ثم يقبل على ثالث فيقول : أبا فلان ، ما إدامك ؟ قال : اللحم السمين والجداء الرضع ، قال : فتأكله بالحوارى ؟ قال : نعم ، قال : ليس هذا عيش آل الخطاب : كان ابن الخطاب يضرب على هذا أوَما سمعته يقول : أترونى لا أعرف الطعام الطيب لباب البر بصغار المعزى ألا تراه ينتقّى من أكله وتنتحل معرفته .

ثم يقبل على الذى يليه فيقول : ما إدامك ؟ فيقول : أكثر ما نأكل لحوم الجزور ، ونتخطف منها القلايا ، ونجعل بعضه شواء ، قال : أفتأكل من أكبادها وأسنمتها وتتخذ لك الصباغ قال : نعم . قال : ليس هذا عيش آل الخطاب . كان ابن الخطاب يضرب على هذا ، أو ما سمعته يقول : أترونى لا أقدر أن أتخذ أكباداً وأفلاذاً وصلائق وصناباً ألا تراه كيف ينكر أكله ويستحسن معرفته .

ثم يقول للذى يليه : أبا فلان ، ما إدامُك ؟ ، فيقول : الشبارقات والأخبصة

---

(١٥) دلوظ ضيزن : مدافع فى الصدر .

(١٦) البيان والتبيين ٣ : ٧٥ ط السندوبى ، و٣ : ٧٩ ط عبد السلام هارون ، والشعر لوبر بن معاوية الأسدى

والفالوذجات ، قال : طعام العجم وعيش كسرى ولباب البر بلعاب النحل بخالص السمن ، حتى أتى على آخرهم ، كل ذلك يقول : بئس العيش هذا ، ليس هذا عيش آل الخطاب ، وكان ابن الخطاب يضرب على هذا .

فلما انقضى كلامه أقبل عليه بعضهم فقال يا أبا سعيد ، ما إدامك ؟ قال : يومًا لبن ، ويوما زيت ، ويوما سمن ، ويومًا تمر ، ويومًا جبن ، ويومًا قفار ، ويومًا لحم . عُيش آل الخطاب[١٧] .

وفى خبر آخر يذكر الجاحظ الأصمعى فيخرجه عن حلمه ، وينهر سائله الذى جاء يستقرضه قائلاً ، أتدرى ما تريد بشيخك ؟ إنما تريد أن تفقره ، فإذا أفقرته فقد قتلته ، وقد تعلم ما جاء فى قتل المؤمن !

وربما لاحظ الرشيد عليه بخله وزهده فى الطعام وتقتيره على نفسه ، فكان يكافئه على بعض ملحه ونوادره بالغذاء والفالوذج ؛ كما هى الحال عندما أنشده شعرا لمزرد أخى الشماخ .

ومع أن الأصمعى يقول عن نفسه (وصلت بالملح والنوادر) وسبق أن رأيناه يحصل فى ليلة واحدة على تسع وخمسين ألفاً من هارون والفضل بن يحيى ، وعلى أكثر من خمسمائة ألف درهم من جعفر[١٨] – كان يتعوّذ من الاستقراض والاستفراض ، واتفق أن استقرض منه أحد أصدقائه بعضَ المال ، فسأله الأصمعى أن يُسكِّنَ قلبَه برهن يساوى ضعف ما طلب ! فقال له : يا أبا سعيد ، أما تثق بى ؟ قال : بلى ، وإن خليل الله إبراهيم كان واثقًا بربه وقال : (ولكن ليطمئن قلبى)[١٩] .

ومما لا شك فيه أن الأصمعى كان يستهويه المال ، وتحتل الدراهمُ كلَّ يقظته وانتباهه ، قال : كنت عند الرشيد فدخل عليه إسحق بن إبراهيم الموصلى ، فقال الرشيد : أنشدنى من شعرك شيئاً ، فأنشده :

وآمرة بالبخل قلت لها اقصرى ... فليس إلى ما تأمرين سبيل
أرى الناس خلان الجواد – ولا أرى ... بخيلاً له فى العالمين خليل
ومن خير حالات الفتى لو علمته ... إذا قال شيئاً أن يكون يُنيل

---

(١٧) البخلاء بتحقيق الدكتور محمد طه الحاجرى ١٨٥ ، ١٨٦ .

(١٨) الوزراء والكتاب ١٨٩ .

(١٩) المستطرف ١ : ٨٣ .

فعالى فعال المكثرين تَجَمُّلاً وما لى كما قد تعلمين قليل
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ورأى أمير المؤمنين جميل

فقال الرشيد لحاجبه : أعطه عشرين ألفاً ، ثم قال : لله أبيات تأتينا بها يا إسحق ما أتقن أصولها وأبين فصولها وأقل فضولها فقال : والله يا أمير المؤمنين لا أقبل منها درهماً ، قال : ولم ؟ قال : لأن كلامك خير من شعرى قال يا فضل : ادفع إليه عشرين ألفاً أخرى قال الأصمعى : فعلمت أنه أصيد منى لدراهم الملوك[١] .

وهكذا يتنبه الأصمعى أول ما يتنبه فى هذه القصة إلى الدراهم وحدها لا يعنيه وجه الجمال فى الشعر ، ولا بديهة إسحق فى رده على الرشيد ؛ وإنما ينفس على إسحق صيدها من يد الخليفة .

وكان إسحق بن إبراهيم الموصلى من جملة الذين أشاعوا البخل على الأصمعى ونَفَسَ عليه بدوره مكانته لدى الرشيد ، فرماه لديه بالبخل ، وبيَّن له أن الصنيعة لا تزكو عنده ، ولكن هل كان هذا رأى إسحق فى الأصمعى أو هو رأى أوجدته المنافسة وأملته حياة القصور لقد تلمذ إسحق لأبى سعيد ، وأفاد منه ، وحسن رأيه فيه ، فقال فى يوم : (عجائب الدنيا معروفة معدودة منها الأصمعى)[٢٠] وقال فى يوم آخر : (لم أر الأصمعى يدعى شيئاً من العلم فيكون أحد أعلمَ به منه)[٢١] .

ولنا أن نأخذ مرويات الجاحظ عن الأصمعى على أنها سردٌ أدبى طريف فكه ، فهذه طريقة من طرق الجاحظ ومقدرة فذة عنده يضرب بها على وترين ؛ فهو ينال من الأصمعى لما بينهما من اختلاف فى المذهب ، والجاحظ قُدَرِىّ ، ومن ناحية أخرى يختلفان فى الطبع . فالأصمعى متزمت متحرج ، والجاحظ أديب ساخر فكه يثير حفيظةَ صاحبه بمثل هذه النوادر وحكايات البخلاء ، ويأخذ فى تلوينها حتى تبدو زاهية مثيرة لا تترك سامعها أو قارئها دون أن تنتزع منه الضحكات .

والجاحظ لم يكتب كتاب البخلاء ؛ ليعالج ظاهرة شاعت فى البصرة بعد أن تعدد تجارها وأخذت المعاملات المالية جانباً هاماً من حياتها الاجتماعية ، ولكن كان كتاب البخلاء قبل كل شىء أثراً أدبياً فنياً عمد إلى هذه الناحية من التأليف ؛ ليخدم قضية الأدب ، فكان على

(٢٠) المزهر ٢ : ٤٠٤ .
(٢١) تاريخ بغداد ١٠ : ٤١٠ .

الجاحظ أن يتناول الأصمعى وغير الأصمعى من الذين شاعت عليهم صفة البخل ، ثم يحكى أخبارهم على أنها آثارٌ أدبيةٌ تخضع لما يخضع له الفن من التلوين والصَّقْل والاتساع ، والجاحظ لا ينسب لنفسه العصمة ، ولا يَعِدُ بالصدق والتزام الحق على طول الخط ، ولكنه فنانٌ يعترف بالتوليد والخلق فى مقدمة كتاب البخلاء وفى نصوص أخرى أورد بعضها ، وعلق عليها الدكتور محمد طه الحاجرى فى المقدمة التى قدم بها كتاب الجاحظ .

وعلى كل حال فلقد كان الأصمعى حريصًا على المال حتى لا يريق ماء وجهه فى طلب أو مسألة ، والرجل كما رأينا – بالرغم من رحلاته وسفراته الطويلة ووجود الفرصة سانحة ؛ ليكسب من وراء المنافسات الأدبية التى كان فيها من الأفذاذ – لم يذهب إلى هذه الناحية فى طلب المغانم ، ولو أراد ذلك لوجدها عند المأمون الذى ألح فى طلبه فلم يستجب له ، وتعلل بالمرض والشيخوخة ، وكان المأمون بعد هذا يرسل إليه بالأسئلة ويتلقى إجابته عليها دون أن يفقد الأمل فى لقائه يومًا ، وكان يُمَنِّى نفسه وأصحابه بهذا اللقاء ويقول لهم : (كأنى وقد طلع عليكم الأصمعى) وقال يومًا ليحيى بن أكثم : (وددت أنى وجدت رجلاً مثل الأصمعى ممن عرف أخبار العرب وأيامها وأشعارها ، فيصحبنى كما صحب الأصمعى الرشيد)[٢٢] .

كان الأصمعى يستطيع أن يجد عند هذا الخليفة الشاب متَّسعا من رزق ، وبحبوحةً من عيش ، ولكن الأصمعى كان زاهدًا أكثر منه بخيلاً ، وناسكاً قليل الاهتمام بحياة الترف ، راضياً من الدنيا بصورها المتواضعة ، فلم ينج من ألسنة الناس ، واتخذوا من مسلكه هذا ذريعة لإشاعة الشح والبخل عليه : رئى راكباً حمارًا فى أزقة البصرة فقيل له : أبعد براذين الخلفاء صرت تركب هذا الحمار ؟ فقال :

ولما أبت إلا طراقاً بوردها وتكديرها الشرب الذى كان صافيا
شربنا برنق من هواها مكدر وليس يعاف الرنق من كان صاديا

هذا – وأملك دينى أحب إلىّ من ذاك مع فقده .

وهذه الجملة الأخيرة بمثابة تصريح يعطى أدلة ظنية على أن بعده عن قصر الخلافة ، وتعلله لكيلا يصاحب المأمون – إنما كان نوعًا من النسك والتقى .

---

(٢٢) وفيات الأعيان ٢ : ٣٤٤ وجذوة المقتبس ١٢٩ ، ١٣٠ .